الإسلام واندماج المجتمع

قراءة في كتاب مونتغمري وات

أحمد الزعبي ■

لا تبـدو مسألة الاندمـاج الاجتماعي وليدة زمن التـأزم بيـن الإسـلام والغـرب، والتـي أعـادت تظهيرهـا أحـداث 11 سبتمبـر 2001 مـع انطـلاق موجة معاداة الإسلام والمسلمين في أميركا وأوروبا، حيث بات الحديـث عن اندماج المهاجرين في تلك البقاع مطروحاً بقـوة، بالتوازي مـع تسويق أطروحة فشـل محاولات بناء مجتمـع متعدد الثقافات، حتى لو كانـت ثقافته ذات بُعد عالمـي كالإسـلام، مقابـل رؤية تتهـم الأنظمـة الغربية باعتمـاد سياسة اندمـاج صلبة، تدّعـي استيعاب الجميع علـى مبدأ التعددية الديموقراطية، وليس تعدد الثقافات؛ ذلـك أن الكثيـر مـن الإشكاليات المطروحـة تتخذ بُعداً اجتماعيـاً محضـاً يقوم علـى قضايا التنميـة ومستويات التعليـم والدخل والبيئة، وليس علـى أساس ديني، بل إن

■ باحث من لبنان.

مقاربــة هــذه القضايا على أساس ديني يزيد من التأزم، وينعكس سلباً على العلاقات بين المسلمين والبلاد التي يستوطنونها كمهاجر.

بالرغـم من أن دراســات الكتاب الذي بين أيدينــا ـ «الإسلام واندماج المجتمــع»[1] للمستشرق الأسكتلندي مونتغمــري وات ـ عنيت في المقام الأول بإســلام القرون الوسطى؛ فإنها خرجـت بأفكار محددة ومبادئ عامة وثيقة الصلة بمشاكل العالم في الوقت الراهن، إلا أن أطروحته الرئيسة تتلاقى مع كتــب سبقته قاربت الموضوع ذاته؛ ككتاب السير هملتون جيب «المحمدية»، وكتاب برنارد لويس «العرب في التاريخ»، ومع كتب أخرى ككتاب براين تيرنر «علم الاجتماع والإسلام»، وإرنست غيلنر «مجتمع مسلم»، من حيث الارتكاز إلــى تحليل المجتمع على أســس اقتصادية تحيل إلى فهم الأبعاد والتحولات الفكريــة والثقافيــة والسياسية، وترتكــز إلى أن ثمة حركــة عشوائية عقيمة نحــو التناسق بيــن الأمم وداخل كل أمة، أو ربما قــد نقول: إن هناك رغبة فــي تحقيــق ذلك التناسق؛ ولكــن دون أية قاعدة واضحــة لكيفية تحقيقها، وأكثر من ذلك فإن قراءته لا تستقيم إلا إذا كانت ثنائية الوجه؛ أي المؤلف والكتاب.

وات: آخر المستشرقين

أمــا المؤلف فهــو مونتغمــري وات (1909ـ 2006)، المستشرق والباحث الأسكتلنــدي الــذي توفــي قبل سنــوات عن عمــر ناهز 97 عامــاً، بعد حياة أكاديميــة وعلميــة حافلة قضاهــا مشتغلاً بالرسالة الإسلاميــة: دعوة ونبياً، فــي مكة والمدينة، ومستغرقاً في البحث عن زمن الحقبة النبوية فيما ضاع

1 ـ William Montgomery Watt, Islam and the Integration of Society, London, 1961.
وليــام مونتغمري وات، الإسلام واندماج المجتمــع. ترجمة: علي عباس مراد، مراجعة: ستار جبار علّاي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2009.

تحت ركاميات الماضي البعيد، الذي وجد أنه لا يزال حاضراً في النفوس وفي الشخوص، بكل جدية وبكل حيوية وبكل فاعلية حتى يومنا هذا، كما لم يحصل مع أية دعوة دينية أخرى، ولا مع أي نبي آخر.

تخصص وات في الدراسات الإسلامية، اللغوية منها والفكرية والتاريخية والاجتماعية، ووقف حياته كلها على مراجعة الحقبة النبوية في مكانها وزمانها، وعلى يد أصحابها الاوائل، حتى بات أحد أبرز المؤرخين الأساسيين للإسلام في الغرب. وإذ وصفه الدارسون ـ وخصوصاً المسلمين منهم ـ بأنه المستشرق الأكثر شهرة؛ لأنه كتب أكثر من ثلاثين كتاباً عن الإسلام فكراً ومجتمعاً وتاريخاً، فإنه حين أدركته منيته، وصفته الصحف الإسلامية والعربية بأنه المستشرق الأخير، أو بأنه كان بالأحرى آخر المستشرقين.

وإذا كانت ولادة وليام مونتغمري وات تعود لتاريخ 1909/3/14، فإن حياته ـ التي اندرج بها في عصره ـ أرّخت له كقس في كنيسة الأساقفة الأسكتلندية أولاً، ومن ثم كمختص في اللغة العربية في أسقفية القدس منذ العام 1943 وحتى العام 1946، ثم سرعان ما لمع كعضو في «مجمع أيونا» العالمي في اسكتلندا عام 1960، كذلك عمل كمحاضر مساعد لفلسفة الأخلاق في جامعة أدنبرة في الأعوام (1934ـ1938) ثم محاضراً للفلسفة القديمة في الجامعة نفسها طيلة الأعوام (1946ـ1947). وبدأ منذ ذلك التاريخ تدرجه الذي بدا كأنه يميل فيه للدراسات العربية والإسلامية، إذ سرعان ما أصبح محاضراً ثم محاضراً أقدم، ثم أستاذاً للدراسات العربية والإسلامية في الأعوام (1947 ـ 1964)، وحظي برتبة أستاذ شرف لكرسي الدراسات العربية في جامعة أدنبرة منذ العام 1964، حتى بلغ تقاعده في العام 1979.

وقد درّس الإسلاميات واللغويات العربية في جامعة تورنتو الكندية، والجامعة الفرنسية بباريس، وجامعة جورج تاون الأميركية، وكلية باليول،

بجامعــة أكسفورد، إلى جانب حصوله علــى الدكتوراه الفخرية في اللاهوت مــن جامعــة أيبردين، تــاركاً لنا عناوين مــن كتبه وقف حياتــه عليها مثل: «محمــد فــي مكة»، و«محمــد في المدينــة»، و«محمد النبي، ورجـل الدولة»، و«محمــد: خاتم الأنبياء»، و«تأثير الإسلام فــي أوروبا في القرون الوسطى»، و«العقائد الإسلامية»، و«الفلسفــة الإسلامية واللاهوت»، و«الإسلام واندماج المجتمع» وغيرها، فقد أوقف حياته كلها ـ وهو أحد أشهر القساوسة ـ على الكتابة فقط عن الإسلام والتاريخ الإسلامي.

وإذا كان وليــام مونتغمري وات يعدّ بحق واحــداً من أبرز المستشرقين المعنييــن بالشــأن الإسلامي على وجــه مخصوص، ـ فإنــه فضلاً عن غنى تجربتــه الأكاديميــة ـ يعد باحثاً واسع الاطلاع فــي جميع الميادين المتصلة باللغــة العربية والتاريخ والفكــر العربي والإسلامي، القديــم منه والحديث، بقدر ما هو أيضاً كاتب غزير الإنتاج عميق التفكير، صاحب منهج يستكشف به الأحداث، ويحلل من خلاله الوقائع، ويمهد بواسطته لوضع الاستنتاجات.

والقســ الإسلامــوي ـ مونتغمــري وات ـ إنما نجده فــي كتابه «الإسلام واندمــاج المجتمــع» ـ الذي نحن معنيــون بمتابعته من خلالــه ـ يصدر عن وجهــة نظــر استشراقيــة غربية عن أصــل الإسلام وعوامل وظــروف نشأته وطبيعــة عقائده، وصلتها بالأفكار الإبراهيميــة واليهودية والمسيحية، وجملة معتقــدات الحضــارات القديمة فــي سوريا والعراق ومصــر وفارس، وكذلك ينظر في ظروف وعوامل توقف انتشاره أو تراجعه.

ويبــدو لنــا أن الكتاب غني بكثير من التفاصيل المتعلقة بتاريخ الإسلام وأبعــاده الاجتماعيــة، واتجاهاته الفكرية والمذهبيــة، وعوامل وظروف نشأة الفــرق الإسلاميــة وطبيعة معتقداتها ومواضع التقــارب والتباعد بينها وبين عقائــد الإســلام الأساسية مــن جهة، وبين بعضها وبعضهــا الآخر من جهة

أخـرى. بالإضافـة إلـى أنه يقـدم معرفة نوعيـة بتاريخ الإسـلام واندراجه الاجتماعـي، ممـا يجعـل المكتبة العربيـة والإسلامية أكثر غنـى به وبسائر مؤلفاته الأخرى.

صورة الإسلام في الغرب

ويبدو أن أفكار القس «وليام مونتغمري وات» وجميع استنتاجاته ومواقفه من الإسلام الديني والسياسي في هذا الكتاب ـ الموسوم: «الإسلام واندماج المجتمـع» ـ لا تؤسس فقـط للأفكار والاستنتاجات الغربيـة المعاصرة حول الإسلام؛ بل وتؤسس أيضاً للكثير من المواقف والسياسات الغربية المستندة إلـى هذه الأفكار والاستنتاجات، والمستمدة منهـا، خصوصاً إذا ما تذكرنا حرصـ المؤسسات السياسية الغربية بصورة مستمرة على الاستعانة بمراكز الاستشـراق، والإفـادة من دراسات المستشرقيـن وآرائهم في وضع الخطط والسياسـات المتعلقـة بمناطق الاهتمام الغربي في الشـرق عموماً، والشرق الإسلامـي على وجـه الخصوص، سيما وأن أبحاث برنـارد لويس وصموئيل هنتنغتون لا تزال شاهدة حية بين يدينا.

وإذا كان القسـ «مونتغمـري وات» قد جعل الإسـلام والتاريخ الإسلامي ـ خصوصاً الحقبة النبوية منه ـ مركز اهتمامه ومحط دراساته كلها، فإنه في كتابه «الإسلام واندماج المجتمع» إنما يعرض لوجهة نظر استشراقية غربية عـن أصل الإسلام وعوامل وظروف نشأته، وطبيعة عقائده، وصلتها بالأفكار الإبراهيميـة واليهودية والمسيحيـة، وجملة معتقدات الحضارات القديمة في سوريا ومصر والعراق وبلاد فارس، وظروف وعوامل توقف انتشاره وتراجعه. وقـد درسـ المؤلف كل ذلك، وعالجه من خـلال عاملين رأى أنهما أثَّرا في نشأة الإسلام وتطوره، وهذان العاملان هما: العامل الاجتماعي/الاقتصادي المادي. أما العامل الآخر فهو العامل الفكري والروحي.

وفي منهجه هذا ـ الذي اتبعه في دراسة الإسلام وتحليل بنيانه الفكري وبنائـه الاجتماعي ـ بدا «وات» متأثراً بفلسفة كارل ماركس، خصوصاً أثناء معالجتـه للنواحـي المادية والاقتصادية والتاريخية فـي الإسلام الأول، على الرغم من زعمه ـ بشكل أو بآخر ـ بأنه بعيد كل البعد عن الماركسية والمادية التاريخية التي أتت بها. أما في معالجته للنواحي الفكري والروحية فقد بدا الأستاذ «وات» متأثراً بمفهوم كارل مانهايم عن الأيديولوجيا، بوصفها نظاماً فكرياً، يتسم بالتضخيم وشدة المبالغة من جهة، ودقة التحليل وشموليته من جهة أخرى.

ولعل أداته المنهجية هذه هي التي فتحت للقس المستشرق الأسكتلندي أبواب التجديد في الرؤيا والمعرفة، خصوصاً عندما بدأ ينظر في التفاصيل المتعلقـة بتاريخ الإسلام وأبعـاده الاجتماعية واتجاهاته الفكرية والمذهبية، بالإضافة إلى نظره الدقيق في عوامل وظروف نشأة الفرق الإسلامية وطبيعة معتقداتهـا، ومواضيع التقارب والتباعد بينها وبين عقائد الإسلام الأساسية من جهة، وبين بعضها وبعضها الآخر من جهة ثانية.

ومثـل هـذا الاهتمام الغربـي العميق بطبيعـة الإسـلام الأول واندراجه الاجتماعـي، واتساع نطاقه داخل الجزيرة العربيـة وخارجها على يد كوكبة مـن صحابـة النبي ﷺ، جعـل «وات» يتصـرف بالكلية لتقديـم رؤية غربية استشراقية للإسلام، فكراً ومجتمعاً ودولة، ناهيك عن تقديمه بعض الأسس النظرية والعملية لهذه الرؤيا، قديماً وحديثاً.

وهذا ما جعل الباحث يمهد بشكل أو بآخر للغوص في كثير من التوقعات حـول مستقبـل الإسلام، ومجتمعاتـه وطوائفـه، وفرص اندماجهـا وأسباب مشكلاتها من جهة، ومستقبل علاقاتها بالغرب ومجتمعاته من جهة ثانية.

إن مثل هذه التوقعات كان قد صادف وقوعها خلال الأزمنة القريبة أو البعيدة،

وربمـا تحقـق منها الكثير أو القليل، غير أن الاطـلاع على كل ذلك والإحاطة به ضـرورة لازمة لمعرفة طبيعة المنظور الغربـي بصورة إجمالية، وطبيعة المنظور الغربـي الاستشراقـي بصـورة خاصة للإسـلام ولتاريخه السياسـي والاجتماعي والروحـي، ولجميع الأسباب التـي غالباً ما يؤسس عليها الغرب سياساته أو يبني عليهـا مواقفه من الشـرق الإسلامي ومجتمعاته، ومن الإسـلام كدين إبراهيمي دخل في مقارنة مع اليهودية والمسيحية وتجاوز الديانتين في آن معاً.

الدوائر الاستعمارية قد أحلت مفهوم التهديد والخطر الإسلامي، محل ما كان يعرف سابقاً بالتهديد والخطر الشيوعي

والواقـع أن كتاب «وات» عـن الإسلام، إنما ينبـئ عن خطـر الانشاق الداخلي فـي المجتمع الإسلامـي وعـن خطـر الصراعـات المحيقـة بالأوطـان والبلـدان الإسلاميـة، خصوصـاً حين تظهر حـركات تحمـل مسميات وترفـع شعارات إسلاميـة، وتتخـذ مواقـف متشددة مـن بيئاتها ومجتمعاتها الإسلاميـة، مما يضعها في مواجهة عنيفة ودامية معها اليوم أو غداً.

كذلـك الأمـر، فمن خلال كتـاب «وات» يمكن لنـا أن نستشف وبصورة دقيقـة وواقعيـة، خطر الصـراع مع القـوى الإقليمية الغربيـة ذات الأطماع الاستعمارية تاريخياً، وذلك في ظل آليات النظام الدولي الجديد التي أعادت ترتيـب جـداول عملها الإستراتيجـي، لتجعل من مظاهر التحـرك السياسي الإسلامـي ما يهـدد مصالحها وقوة حضورها ونفوذهـا، مستشعرة به شيئاً مـن الإرهاب المعروف عندهم اليوم بإرهاب الإسلاميين. وبذلك تكون هذه الدوائـر الاستعمارية قد أحلت مفهوم التهديـد والخطر الإسلامي، محل ما كان يعرف سابقاً بالتهديد والخطر الشيوعي.

وأكثـر مـن ذلك إن ما باتـت تسميه الإدارات وأجهـزة الإعلام الغربية

بالتطـرف والإرهــاب الإسلامي، غـدا بالنسبة لأهل الغرب تهديـداً حقيقياً وخطراً جدياً إلى حد كبير، خصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وبعـد الاحتــلال الأميركي للعــراق ومواجهته لمقاومة يجـري تنفيذ معظمها تحت شعارات دينية إسلامية. وقد رأينا كيف تم تدمير غزة بحجة مواجهة إرهاب الحركات الإسلاميــة الفلسطينية: حماس والجهاد الإسلامي وكتائب عزالدين القسام.

فلجــوء الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل ـ وجميع الدول المنضوية مؤخــراً تحــت شعــار مواجهــة الإرهاب ـ إلــى استخــدام القــوة العسكرية المباشــرة والمفرطة لتنفيــذ سياساتها وتحقيق أهدافهــا ـ وخصوصاً تلك المتعلقــة بما يسمى بتهديد خطــر التطرف والإرهاب الإسلامي ـ إنما يفيد أيضــاً مــن الاعتمــاد المكثف في هــذه المواجهــة على القــوة الفكرية غير المباشــرة. فهذه الــدول الغربية تعرف جيــداً صدق قــراءات الأستاذ وات وغيره مــن المستشرقين للواقع الإسلامي في الشــرق. ولهذا كان الاهتمام الإمبريالــي الغربــي المبكــر بدراسة الشــرق انطلاقاً مــن أن المعرفة هي سبــب القوة ومصدرها، وأن الأكثر معرفة هو الأكثر قوة. وهي نظرية أعاد المفكر الأميركي «آلفن توفلر» التأكيد عليها في جميع مؤلفاته التي صدرت بين أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، خصوصاً حين يقــول: «إن المعرفــة قوة فــي حد ذاتها، بقــدر ما هي أيضــاً سبب لزيادة وتدعيم المصادر الأخرى للقوة».

لقد استطاع «وات» فــي كتابه «الإسلام واندماج المجتمع» أن يستشرف موقــع الاقتصاد فــي تحديد حياة المجتمع؛ لأن التقدم الاقتصادي هو الذي يرســي قواعد الدولة في المجتمع. كذلك فإن الأفكار والحركات الاجتماعية ذات الطابــع الدينــي السياســي يمكــن أن تكــون مؤثرة للغاية فــي مواجهة السلطــات القائمة أو في تثبيتها ومساندتها وتدعيمهــا، أما الرغبة العالمية

في الانسجام والاندماج فلا يمكن أن تتم إلا عندما تتضمن أفكاراً محددة، تحـرر الطاقـة الروحية، وتطلقها في المـدى البعيد، ولهذا فـإن ما تم من خلال الإسلام لم يتم من خلال سائر الأديان.

إرث الإسلام في الوحدة والعالمية

أما الكتاب فيتكوّن من ثمانية فصول، مع مقدمة وخلاصة، حمل الفصل الأول عنـوان «مشكلات وفرضيات تمهيدية، وفيه يؤكد وات أن «الإسلام في بعضـ الجوانـب المهمة يمثّل وحدة واحدة، والمجتمـع الإسلامي حقق قدراً من الانسجام والاندماج»، ويلفت إلى أن الهدف الأساس للكتاب هو «الكشف عن إنجازات الإسلام الإيجابية، ومحاولة اكتشاف القوانين العامة والمبادئ المتجسدة فيها»، وقد غاص في تحليل الخلفية الاقتصادية لظهور الإسلام.

فـي الفصل الثاني «دور العوامل الاقتصاديـة والاجتماعية»: يدرس وات الطبيعة الدقيقة لاعتماد الحركات الدينية على المسائل الاقتصادية والمدى الـذي يبلغه ذلـك الاعتماد، ممهداً بسـؤال مفتاح للفصـول اللاحقة، يتعلق ببعضـ الأوجـه الرئيسـة للإسلام، وهو هـل يمكن أن نجد فـي خلفية هذه الحركـة أي تغير اقتصـادي مهم يمكن أن يكون ذا صلـة ملحوظة بها؟ ثم يعرض لأصل الإسلام؛ أي بداية دعوة النبي محمد في بيئة متميزة بالتغيرات الاقتصادية والاجتماعيـة، وموقف الدين الإسلامي من القضايا الاقتصادية والاجتماعيـة، محيلاً إلى موافقة القـرآن التامة على العمل التجاري بما في ذلك الصفقات التجارية الكبرى.

كذلـك عرض للنتائج الاقتصاديـة لهجرة النبي محمد إلى المدينة، ليخلصـ إلـى أنـه «إذا كانـت العوامـل الاقتصادية جوهريـة في بعض الجوانب، فمن المفترض أن تشكل الأساس لكل المظاهر المختلفة لتطور

الديـن؛ كانتشـاره بين الشعوب الأخرى مقارنة بانتشـاره بين الذين نشأ بينهـم، وأفولـه جزئياً أو كلياً، وانقسامه إلـى طوائف وظهور البدع فيه، وتأكيداتـه الفكريـة التي تنوعت مـن عصر لآخر. وهـذا أساس مساعد لدراسـة العلاقـة بين العوامـل الاقتصادية والاجتماعيـة والفكرية، فإذا كانـت العوامل الاقتصادية مهمة، فالمرجح أن تكون مؤثرة أيضاً في كل مـكان، ويجـب النظر فـي كل مكان لنرى هل يمكننـا الكشف عنها»، ثم يعرض للعلاقـة المتبادلة بين التغيرات الاقتصاديـة والتغيرات الدينية، «فحيثمـا يكـون التغير الاقتصادي تغيـراً في وسائـل أو أساليب الإنتاج، سيكـون لهـذا التغير عادة نتائج اجتماعية تقـود بدورها إلى تغير ديني، ومـن جانب آخـر، وحيثما يكـون التغيـر الاقتصادي تغيـراً في شخص الحاكـم فستعتمـد التأثيرات على مـا إذا كان الحاكـم الجديد من نوع الحاكم السابق أو من نوع جديد».

أمـا في الفصل الثالـث «دور النظام الفكري / العقائـدي»، فيعالج فيه السـؤال الأكثر للجدل حول مكانة العامل الفكري ودوره، وهل تحدد العوامل الاقتصاديـة والاجتماعيـة بشـكل كلّـي مجموعـة الأفـكار السائـدة في أي مجتمـع، أو هـل أن هـذه العوامل مجرد ظاهـرة ثانويـة، أو ـ بتعبير آخر ـ هل للتفكير وظيفة مهمة في النشاط الإنساني؟ فيعرض للأصول الاجتماعية للنظـام الفكري / العقائدي، في مرحلة الدعوة المكيّة والبرنامج الاجتماعي المصاحب، ثم ما يعتبره انحراف النظام الفكري / العقائدي بفعل الارتباط الاجتماعـي، فالأصـول الاجتماعية للنظام الفكـري / العقائدي في المرحلة المدنية، والبرنامج الاجتماعي / السياسي الجديد.

وبعـد معالجة مكانة العوامل الاقتصادية والاجتماعية والفكرية في حياة المجتمـع ـ حيـث تمّ عدّ المجتمع وحـدة متجانسة، بما يعنـي عدم الانتباه

بشـكل دقيـق إلى وجود الجماعـات المختلفة فيه ـ يقـارب وات في الفصل الرابـع «إرادة الوحـدة والانفصـال»؛ أي كيـف تحقق قدر مـن الاندماج في هذا المجتمع المتكوّن من مجموعات متعددة ومتباينة الخواصّ، مع تفصيل لأهمية الوحدة، كمفهوم وممارسة في دعوة الإسلام قبل تبدأ ملامح الفُرقة مـع ظهور حركات الخـوارج والشيعة، ثم يعرض لانتشـار الإسلام في غرب أفريقيا.

وفـي الفصـل الخامس «اندماج الحيـاة السياسيـة» والفصلين التاليين يبحـث وات ثلاثة جوانب للحياة السياسية للعالم الإسلامي، مبتدءًا بدراسة المظهـر السياسـي؛ إذ إن الحركة الدينية التـي يسميها (نمو الإسلام) لها أصداؤهـا السياسيـة، بما يعني مدى سيطرة الدين علـى الشؤون السياسية للمسلمين، وكيـف أثّرت بها عقائد الإسلام في التفكير السياسي. ثم يشرع فـي تحليل كل من: المجتمـع، والقبيلة، والمسـاواة، والتوحيدية والاتجاهات الانفصالية، والعلاقات مع غير المسلمين، ومؤسسة الحكم.

ويستكمـل في الفصل السادس ـ «اندماج التقاليـد» ـ والفصل السابع ـ «اندمـاج الحياة الفكرية» ـ ما بـدأه في الفصل الخامس، معتبراً أن الصفة «الرئيسـة للنظام الفكري في حياة المجتمـع هي أن يحدد لأفراد المجتمع، ويفسّـر الغايات التي يسعون بصورة مشتركـة لتحقيقها، ويضعها في جدول للأسبقيـات، وأن يزودهـم بـرأي عن طبيعـة الواقع الذي يستنـد إليه هذا المسعـى، لذلـك كان هناك رأي يعـدّ كل أعضاء المجتمـع حاملين لنظامه الفكري ومشاركين في حياته الفكرية».

ويختم وات كتابه في الفصل الثامن ـ «الاندماج الروحي» ـ باستشرافه لعلائـق الديـن بكل مـن المجتمـع والاقتصاد، فيـرى أنـه مثلما طرحت إشكاليـات حـول اندمـاج المجتمع الدينـي، كان ثمة أسئلـة عن الاندماج

الروحـي للفرد، كسرّ النمو والاضمحلال، والموقف من المسيحية، وتوافق الإسـلام مع التوحيد المبكـر، وصورة النبي محمد فـي الكتاب المقدس، ومفهـوم الإسلام عن نفسه، كمجتمع انبثق عـن الوحي الديني، ومستقبل الإسـلام. وهنا يؤكد على تقرير فكرتين: الفكرة الأولى: هي أن الاقتصاد ـ أو بعموميـة أكثر العوامل المادية ـ هي الأساس، وليس ذلك بمعنى أنها العوامـل التـي تشـكل هيكلاً يجـب أن يعيشـ المجتمع حياته فـي إطاره. وينطبـق هذا على العالـم المعاصر؛ حيث قاد التقدم فـي العلم وتقنيات إلـى وحدة العالم مادياً (مـن خلال وسائل الاتصـال)، واقتصادياً (من خـلال نمو إنتاج هائل في الصناعة والتجارة العالمية)، بما يؤسّس نظام حياة العالم المعاصر.

أما الفكرة الثانية فهي أن لأي نظام اقتصادي قائم أنظمة اجتماعية معينـة تكون أكثـر ملائمة له من الأنظمة الأخـرى، ويعني هذا أنه حيثما يحدث تغير في الاقتصاد أو العوامل المادية، يصبح المجتمع غير متوافق بالنتيجـة، وتصبـح عملية إعادة التوافق ضروريـة، وتتكامل في إطار هذه العمليـة الأفـكار والحركة الاجتماعية؛ إذ يمكـن للمجتمع الساخط القيام بحـركات معينة دون أفكار، ولكـن مع الأفكار فقط تكون الحركات حقيقة وذات أنشطـة اجتماعيـة مؤثـرة، وتقـدم الحـروب الداميـة والمجتمعات الساخطة في أغلب البلدان دليلاً ساطعاً على سوء التوافق الاجتماعي في العالم المعاصر.

وات فـي ختـام كتابه يـرى أن «هنـاك حركـة عشوائيـة عقيمة نحو التناسـق بين الأمم وداخـل كل أمة، أو ربما قد نقول: إن هناك رغبة في تحقيـق ذلك التناسـق، ولكن دون أيـة قاعدة واضحة لكيفيـة تحقيقها»، ويخلصـ إلـى أنه «من المحتمل أن تكون الرغبة العالمية في الانسجام أو

الاندمـاج مقنعة فقط عندما ينصهر المجتمـع الساخط مع مجموعة من الأفـكار الملائمة، وعندهـا ستكون هناك حركة مؤثرة قـادرة على إنجاز قدر من الوحدة للمجتمع العالمي، وربما من غير الضروري أن يكون نظام الأفـكار هذا نظاماً دينياً ابتداء وبشـكل رئيس؛ ولكنه على الأقل يجب أن يتضمـن أفكاراً محـددة أو تصورات أو رموزاً تحـرر الطاقة الروحية، إلا أنـه يبـدو ـ وعلى المدى البعيـد ـ أن لا شيء أقل من الدين يمكنه إدماج المجتمـع العالمـي فيـه. ولا يمكن التنبؤ بما إذا كان هـذا الدين هو أحد الأديـان العالمية أو حركة أعيد تشكيلها ضمـن أحد أديان العالم أو ديناً جديـداً؛ إذ لا يمكن لتفكيـر الإنسان أن يقرر قبل وقوع الأحداث ما الذي يجذب الناس ويطلق طاقاتهم».